الإمامُ الحُسَيْنُ (ع) بَيْنَ التُّجّارِ وَالأَنْصارِ

إنّ تعريفَ مُصطلح (التُّجار) في مُعظَم مَعاجم اللغة العربية يكونُ له عِدَّةُ مدلولاتٍ فمنها: تاجرُ دين – تاجرُ سياسة – تاجرُ مبادئ – مَنْ لا يرعى ذِمَّةً في سَبيلِ مَصلَحَتِهِ، وجَمعُ كلمةِ تاجر هو (تُجّار) أي مَنْ يُمارِسُ الأعمالَ التجاريةَ بَيْعاً وشِراءً على وَجهِ الاحتراف. أمّا بالنِّسبَةِ لِتعريفِ مُصطَلَح (الأنصار) ففي المُعجَم العربي عامَّةً هُمْ أهلُ مَدينةِ رسولِ اللهِ (ص) الذينَ نَصَروهُ حينَ هاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إليهم وَهُمْ خِلافُ المُهاجِرينَ، وإنَّ (أنصار) مِن جَمْع (ناصر) أي إعانة المظلوم على الظالم. فإنَّ لِكُلِّ شَخصِيَّةٍ عظيمةٍ بتضحياتِها ومَواقِفِها التي ترتفِعُ بها إلى مَصافِّ العُظَماءِ الذين تَرَكوا آثارَهُم على البشرية، وجَعَلُوا مِنْ أَمْنِ الحَياةِ أكثرَ وُضوحاً ويُسراً وَعِندَما يُصْبِحُ العَظِيمُ عَظيماً باستحقاقٍ فَلا بُدَّ أن تكونَ هُناكَ شواهِدُ مَبدَئيةٌ وعَمَليةٌ تُقَدَّمُ لِمُنجَزاتِهِ التي خَدَمَ فيها المُجتَمعَ الإنساني، ويُمكِنُ أنْ تكونَ هذهِ الشَّواهِدُ شهاداتٍ مِنْ أفذاذٍ عباقرةٍ، ماذا لَوْ كانَ مَنْ يَشهَدُ بعَظمَتِهِ الأنبياءُ وخاتمُهم النبيُّ مُحَمَّدٌ (ص)! فإنَّهُ الحُسَيْنُ بْنُ عَلِيّ (ع) الذي اشتهر بثَورَتِهِ الإصلاحيةِ والتي تُعَدُّ مِنْ أشهَرِ الثَّوراتِ في تاريخِ الإنسانيةِ، فثورَتُهُ لَمْ تكُن لِجَمعِ المالِ والبَحثِ عن الجاهِ والتَّطَلُّعِ إلى الحُكمِ والتَّسَلُّطِ على رِقابِ النّاسِ، بَلْ كانت لِضمانِ مَبْدَأ حُرِّيَّةِ الإنسانِ وَكرامَتِهِ، مِنْ أَبْرَزِ أهدافِها: **أ)** تغييرُ الجِهازِ الحاكِم، **ب)** الكشفُ عن فسادِ الطُّغاةِ وانحرافِهِمْ، **ت)** تحريكُ العواطِفِ وإيقاظُ الضمائِرِ. لِذلِكَ نَجَحَتْ ثورتُهُ لِأنَّها اسْتَنَدَتْ إلى ثَلاثَةِ ركائِز مُهِمَّةٍ للإصلاح وهي: **أ)** المنهجُ الإصلاحيُّ الواضِحُ المَعالِمِ والمُتَمَثِّلُ بكتابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، **ب)** وُجودُ القيادَةِ المُصْلِحَةِ لِتَبَنّي المَنْهَجِ والمتجسدَةِ بالإمامِ الحُسَيْنِ (ع)، **ت)** وُجودُ الأُمَّةِ التي تَلْتَفُّ حولَها القيادَةُ، ولكِن هَلْ تستطيعُ هذه الأُمَّةُ المُضِيَّ حتّى النِّهايَةِ؟ وإنَّ مَوضِعَ الخللِ في الثَورة الحُسَينيَّةِ يَقَعُ في هذا المِفْصَلِ المُهِمّ، فَالأُمَّةُ في تِلْكَ الفترةِ كانَتْ تَتَّصِفُ بِما يلي: **أ)** إحساسٍ كبيرٍ بحالَةِ الظُّلْمِ، **ب)** الشُّعورِ الكبيرِ بالتَّخَلُّصِ مِنَ الظالِمين. فَلِهذا تَرَكَتْ الثورةُ نتائِجَ إيجابيةً فَمِنها: **أ)** فضحُ الطُّغاةِ المُتَصَدِّينَ لِلسُّلطَةِ وتحطيمُ الإطارِ الدينيّ المُزَيَّفِ لَهُمْ، **ب)** إحياءُ الرسالَةِ الإسلاميةِ، **ت)** إحياءُ إرادَةِ الأُمَّةِ وَرُوحِ الجِهادِ فِيها. وإنَّ الإمامَ الحُسَيْنَ سِرُّهُ أنَّهُ أعرَفُ مِنْ أنْ يُعْرَفَ بِمعروفِهِ وإحسانِهِ وَخُلُقِهِ وَعِبادَتِهِ وَلكنَّها دُروسٌ وَعِبَرٌ لِلأجيالِ لِتَنالَ مِنْ ثِمارِهِ الزَّكِيَّةِ وثوابِتِهِ التربَويَّةِ وَمِنْ ذلِكَ: حكايةٌ عَجيبَةٌ فِيها تَنْمِيَةٌ للفردِ والمُجتَمَعِ لِأعرابيٍّ قَصَدَ الإمامَ في حاجَةٍ، فقالَ الإمام: "ما حاجَتُكَ؟" فَكَتَبَها على الأرضِ، فقال (ع): "سَمِعْتُ جَدّي مُحَمَّدٌ (ص) يقول: (المعروفُ بِقَدرِ المَعرِفَةِ)، فأسْأَلُكَ عَنْ ثلاثِ مَسائِل إنْ أحسَنْتَ في جَوابِ واحِدَةٍ فَلَكَ ثُلُثُ ما عِندي، وإن أَجَبْتَ عَنِ اثنينِ فَلَكَ ثُلُثا ما عندي وإنْ أجبتَ عن ثلاثٍ فَلَكَ كُلُّ ما عندي"، فقال الأعرابيُّ: سَلْ وَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ، فقالَ الإمام: "أيُّ الأعمالِ

أفْضَلُ"، قال الأعرابي: الأيمانُ باللهِ، قالَ (ع): "فَما نَجاةُ الْعَبْدِ مِنَ الهَلَكَةِ؟"، قالَ الثِّقَةُ باللهِ، قال (ع): "ما يَزِينُ المَرْءَ؟"، قالَ: عِلْمٌ مَعَهُ حِلْمٌ، قال (ع): "فإنْ أَخْطَأهُ ذلِكَ؟"، قال: فَمالٌ مَعَهُ كَرَمٌ، قالَ (ع): "فَإن أَخْطَأهُ ذلِكَ؟"، قال: فَفَقْرٌ مَعَهُ صَبْرٌ، قال (ع): "فَإنْ أخطأهُ ذلِكَ؟"، قالَ: فَصاعِقَةٌ تَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ فُتُحرِقَهُ، فَضَحِكَ الإمامُ (ع) وَرَمى بِالصُّرَّةِ مِنَ المالِ إليهِ. وإنَّ إمامَنا الحُسينَ (ع) مَهْما كَتَبنا عَنهُ فَلا نُؤَدِّي حَقَّهُ لِأنَّهُ يمتلِكُ سَلامَةَ الباطِنِ وَسَعَةَ المَخزونِ، فَهُوَ موسوعةٌ فِكْرِيَّةٌ نَسْتَلْهِمُ مِنها الدُّروسَ والعِبَرَ، وفي هذا المقالِ المُتَواضِعِ إنْ أرَدتُ أنْ أَتَكَلَّمَ عن الإمامِ مِن جِهَةٍ كُلِّيَّةٍ فِي جُزءٍ مُختَصَرٍ فَالمَقْصَدُ الأعظمُ والكبيرُ مِنْ هذا المقالِ هُوَ ذِكرُهُ أوّلاً، وابتغاءُ حُبِّهِ وَمَوَدَّتِهِ (ع) ثانياً. وَنَظَراً لِما رَسَمَهُ الإمامُ مِنْ خُطَطٍ وأهدافٍ لِأجلِ الحِفاظِ على الرسالةِ الإسلاميَّةِ الإلهيةِ التي نَزَلت على جَدِّهِ مُحَمَّدٍ (ص)، ونتيجَةً لِإصرارِهِ بالذَّهابِ إلى كربلاءَ وتضحيتِهِ بِكُلِّ ما يملِكُ مِن غالٍ وَنفيسٍ رَغْمَ مَعرِفَتِهِ بأهْلِ الكُوفَةِ بأنّهم قد نَقَضوا العَهْدَ، فقالَ مَقولَتَهُ المَشْهُورَةَ: "واعلَمُوا أنّي لَمْ أخرُجْ أَشِراً وَلا بَطِراً وَلا مُفسِداً وَلا ظالِماً بَلْ إنَّما خَرَجْتُ لِطَلَبِ الإصلاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي"، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ الإمامُ بِأنَّهُ خَرَجَ مِنْ أجْلِ الإصلاحِ الحقيقيِّ لا الإصلاحِ التَّخَيُّلِيِّ الذي يَدَّعِيهِ البَعضُ في وَقتِنا هذا، فالإصلاحُ هِيَ مُهِمَّةُ كُلِّ فَردٍ في المُجْتَمَعِ الكبيرِ والصغيرِ والرَّجُلِ والمرأةِ والمُتَعَلِّمِ وغيرِهم، فإنَّ مِن هذا المَوْقِفِ قَدْ نَالَ إعجابَ كُلِّ الأحرارِ في العالَمِ وحتى رُؤَساء أكبرِ الدُّوَلِ وجميع المُناضلينَ الشُّرفاءِ في أقصى نُقطَةٍ في العالَمِ، لِأنَّ مَوقِفَهُ وَوُقوفَهُ ضِدَّ الطُّغاةِ رَغمَ عَدَمِ التَّوازُنِ لا بالعُدَّةِ ولا بالعَدَدِ وَلكنْ كانَ يَحمِلُ فقط (الأيمانَ) وهذهِ رسالةٌ إلى الذين يُتاجِرونَ بِاسْمِ الإمامِ (ع) بأنَّ الإمام آنَذاك لا يملِكُ فَقَط سوى الإيمانِ، إضافَةً إلى شَجاعَةِ أبيهِ وَجَدِّهِ، وَكُلُّ هذهِ المواقِفِ جَعَلَتْ مِنَ الإمامِ أُسْطورَةً عالَمِيَّةً حقيقيةً. وإنَّ لِحُقوقِ الإنسانِ في مَسِيرةِ عاشوراءَ مكانةً كبيرةً بَلْ تَعَدَّتْ المُمارَسَةَ العَمَلِيةَ لِقائِدِ المَسيرَةِ لِتَشْمِلَ الحيوانَ أيضاً، ومثالٌ على ذلك: مَوقِفُ الإمامِ مَعَ الحُرِّ بْنِ يَزيدَ الرِّياحيِّ حينَ سَقى الخَيْلَ والرِّجالَ بالماءِ، وَهذا يأتي لُزوماً فِي تَطبيقِ المَعنى الوارِدِ لِحقوقِ الإنسانِ والذي يدعو إلى الحَدِّ مِن سُلطَةِ الحاكِمِ والدِّفاعِ عَنِ الحُرِّيَّةِ وَكرامَةِ الفردِ والمُجتَمعِ. ومِن هُنا نُجِيبُ عَلى مَن يَتَساءَلُ ماذا تعلمتم من الحسين؟، فيكونُ جوابُنا لَهُ: تَعَلَّمْنا: **أ)** كَيفَ نعيشُ ونَرْفِضُ العَيْشَ الذليلَ بِصَرخَتِهِ المُدَوِّيَةِ "هيهاتَ مِنّا الذلةُ"، **ب)** عَلِمنا أنَّ مَبادِئَ الثورَةِ بِوَجهِ الطُّغاةِ والظَّلَمَةِ الذين جَعَلوا مِنَ الحُكْمِ وِراثةً، وَلَوْ أنَّ الحَياةَ تبقى لِحَيٍّ لَكانَ الأنبياءُ أولى بِها ولَيْسَ الظَّلَمَةُ، **ت)** تَعَلَّمْنا كَيفَ نَحْيا مِن جديدٍ رَغمَ المَآسي والآلامِ. وَلا نَنْسى المَقولَةَ المَشْهورَةَ التي يُرَدِّدُها الكثيرُ مِنْ مُحِبّي وَأنصارِ الإمام وهي: (كُلُّ أرضٍ كربلاءُ وكُلُّ يَومٍ عاشوراءُ)، فَنَسْتَنْتِجُ مِنها وَبِيَقينٍ راسِخٍ أنَّ في كُلِّ زَمانٍ حُسَيناً يَهْتِفُ بِصَرخاتٍ مُدَوِّيَةٍ ضِدَّ الظُّلْمِ والطُّغْيانِ، وَفي كُلِّ زمانٍ أيضاً أنصاراً

ثائِرينَ لا تأخُذُهُمْ في الله لَومَةُ لائِمٍ لِمُجابَهَةِ هذا الظُّلْمِ. وَإنَّ عاشوراءَ بِطُقوسِها رِسالَةُ احتِجاجٍ لِكُلِّ التَّعَسُفِ والجَوْرِ الذي يُعانِيهِ المُجْتَمَعُ، وَهِيَ بِنَفْسِ الوَقتِ براءَةٌ مِنْ ظُلمِ الحُكّامِ واستهتارِ أعوانِ الظَّلَمَةِ بإرادة المُجْتَمَعِ، وَإنَّ قِيامَ الإمام (ع) وإيقاظَ وُجدانِ النّاسِ على مَرِّ التاريخِ وَحتّى يومِنا هذا، لِهذا ظَهَرَتِ العديدُ مِنَ الثَّوراتِ والنَّهضاتِ الإسلاميةِ الواحدةَ تِلْوَ الأُخرى، والتي حَتماً جرى قَمعُها، وَلكِنْ لَيْسَ المُهِمُّ أنْ يُجْرى قَمْعُ التَّحَرُّكِ مِنْ قِبَلِ الطُّغاةِ وإنْ كانَ بالطَّبْعِ مُرّاً، ولكِنَّ ما هُوَ أَمَرُّ أنْ يَصِلَ المُجتَمَعُ إلى حيثُ لا يُظْهِرُ أيَّ رَدَّةِ فِعلٍ مُقابِلَ هؤلاءِ الطُّغاةِ، هذا هُوَ الخَطَرُ الأكبرُ، ولا تَتَكَرَّسُ قضيةُ الإمامِ (ع)، في شَكْلِ الشَّهادَةِ وظروفِ تَحَقُّقِها مَعَ أنَّ هذا الجانِبَ يَسْتَحِقُّ البحثَ والتركيزَ ولكِنَّ الأهَمَّ في قضيتِهِ الطبيعةُ العقائديةُ لِشَهادَتِهِ، باعتبارِها مَنْهَجاً لِلعَوْدَةِ بالمشروعِ الإسلامي إلى أصالَتِهِ الرساليةِ، ومَنِ هُنا يَجِبُ أنْ يكونَ التساؤلُ لَيْسَ في كيفيةِ قَتلِ الإمام واستشهادِهِ، وإنَّما يكونُ السؤالُ (لِأجلِ مَن اسْتُشْهِدَ هُوَ وَأنْصارُهُ؟). واليومَ أيضاً حاضِرُنا أشبهُ بالماضي، فاليومَ نشهَدُ الكثيرَ مِنَ الاحتِجاجاتِ في عالَمِنا العربيّ وخاصَّةً في العِراقِ انتفاضَةَ شَعبٍ مِنْ أجْلِ الشَّعبِ والتي قَدَّمَتْ وما تزالُ المِئاتِ مِنَ الدِّماءِ الزَّكِيَّةِ وَهُمْ بِعُمُرِ الوُرودِ ويُعتَبَرون فَلَذّاتِ أكبادِ أُمَّهاتِهِمْ ضِدَّ المُتَسَكِعينَ والمُتَشَبِثينَ بالسُّلْطَةِ، وهذا ما يَسْتَوجِبُ علينا أنْ نطرَحَ سُؤالَنا (لِأجلِ مَن اسْتَشْهَدُوا؟)، فإنَّ هذِهِ التساؤلاتِ لا يُجابُ عَليها مِنْ خِلالِ أحداثٍ واقِعَةِ كربلاءَ أو الأحداثِ الداميةِ التي نشهدُها اليومَ أو حَصرِ التاريخِ في مَرحَلَةٍ مُعَيَّنَةٍ, ولكنَّ الإجاباتِ تبدَأُ مِنْ حيثُ ولادَةُ الإمام وظروفُها لأنَّهُ هو القائدُ، بحيثُ تَعكِسُ لَنا الحاجةَ المُلِحَّةَ والمُستَمِرَّةَ لِوُجودِ مُصلِحٍ حقيقيٍّ رَشيدٍ لإنقاذِ المُجتَمَعِ مِنْ ضَحالَةِ الانحِطاطِ، وأخيراً نقولُ: (بِأَنَّ الحُسَيْنَ لا يُقاسُ بالثُّوّارِ بَلْ بالأنبياءِ، ولا تُقاسُ كربلاءُ بالمُدُنِ بَلْ بالسَّماواتِ، ولا تُقاسُ عاشوراءُ بِحوادِثِ الدَّهْرِ بَلْ بِمُنْعَطَفاتِ الكَوْنِ، هكَذا هُوَ الحُسَيْنُ.

بقلم: م.م زين العابدين عباس ناصر الصافي

جامعة واسط / كلية علوم الحاسوب وتكنلوجيا المعلومات

تنقيح:م.م محمد سالم أسماعيل